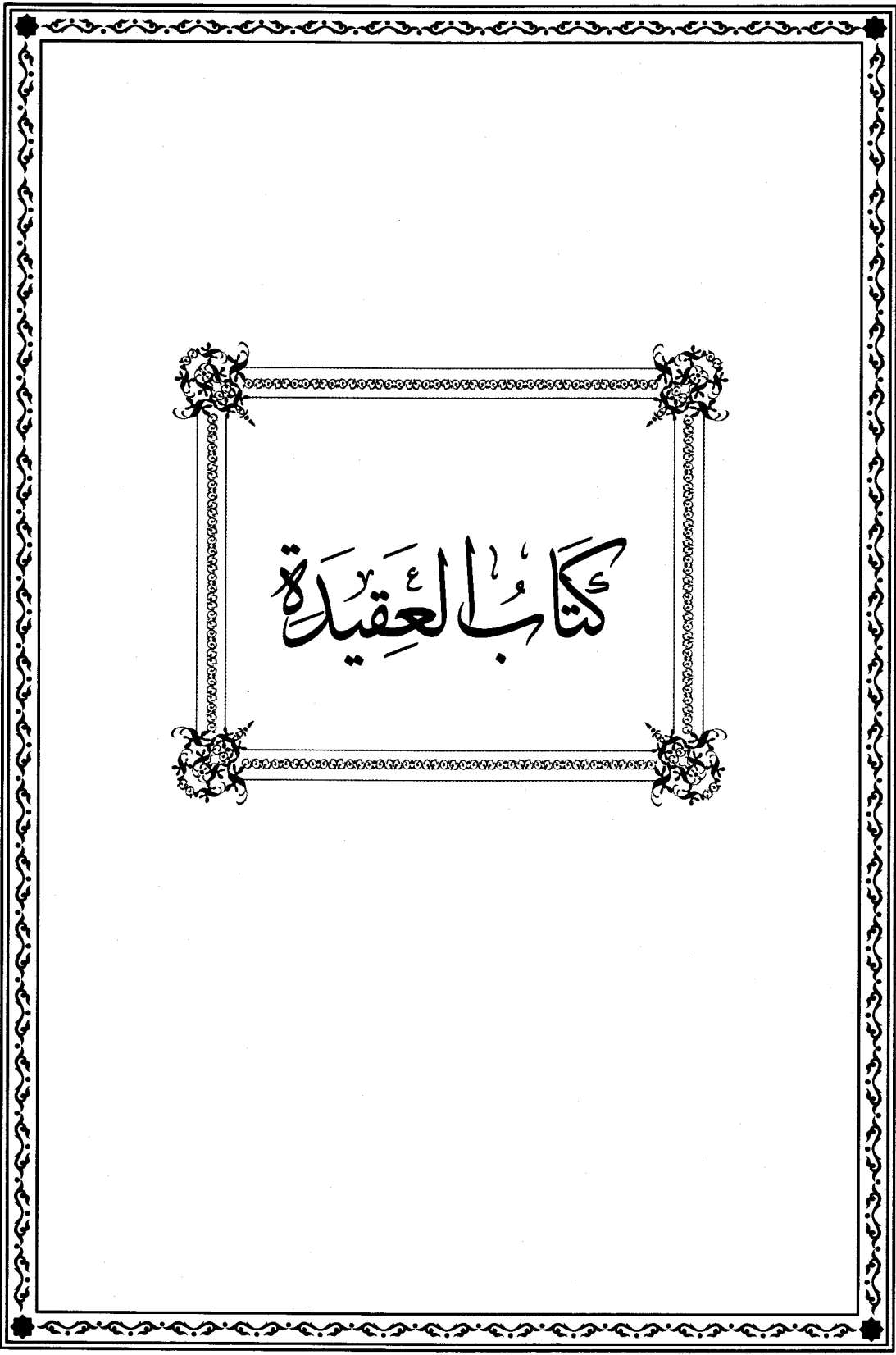




كتاب العقيدة

❀ التوحيد ❀

(١) تقول السائلة أ. ع: قرأت في كتاب أن أهل التوحيد لا يخلدون في

النار، فمن هم أهل التوحيد؟

فأجاب - رحمه الله تعالى -: أهل التوحيد الذين عبدوا الله - تعالى -

وحده، أي: قاموا بالعبادة مخلصين بها لله، متبعين فيها لرسول الله ﷺ، ولا يختصون بطائفة دون أخرى، في أي بلاد كان الإنسان، ومن أي قبيلة كان، ومن أي جنس كان، إذا قام بعبادة الله - عز وجل - وحده، مُتَّبِعًا في ذلك رسوله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - فهو من أهل الجنة.

(٢) يقول السائل: ما هي أنواع التوحيد وشروط كلمة التوحيد؟

فأجاب - رحمه الله تعالى -: أما بالنسبة لسؤال السائل عن كلمة

التوحيد، فكلمة التوحيد هي لا إله إلا الله، أي: لا معبود حق إلا الله، وهذه تتضمن شيئين مهمين:

الأول: نفي الألوهية الحققة عما سوى الله - عز وجل -، فإنه لا إله إلا الله

- عز وجل -.

والثاني: إثبات الألوهية الحققة لله - عز وجل -، وبهذا تم الإخلاص في

هذه الكلمة العظيمة التي هي باب الدخول في الإسلام، ولهذا من قال: لا إله إلا الله، فقد عصم دمه وماله.

ففي الحديث الصحيح أن أسامة بن زيد رضي الله عنه لحق رجلًا مشركًا هرب

منه، فلما أحاط به قال المشرك: لا إله إلا الله. فقتله أسامة بعد أن قال: لا إله

إلا الله، فأخبر بذلك النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -، فقال له: «يا

أسامة، أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله» قال: قلت: يا رسول الله، إنها كان

مُتَعَوِّذًا. يعني: ليعتصم بها من القتل وليست عن إخلاص، فقال النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: «أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله» فما زال يُكْرِّرُهَا عَلَيَّ، حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم.^(١)

فهذا أهم شيء في كلمة الإخلاص.

ومن شروط قبولها أن يكون الإنسان قد قالها عن يقين، أي: قالها مُتَيَقِّنًا، لا مترددًا ولا مُقَلِّدًا، بل متيقنًا أنه لا إله حق إلا الله -تبارك وتعالى-، ولها مكملات بعضها على سبيل الوجوب وبعضها على سبيل الاستحباب، معلومة في كتب أهل العلم.

(٢) يقول السائل ي. ح: ما أقسام التوحيد مفصلة؟ لأننا في زمن كثرت فيه الشُرَكِيَّاتُ، فنشاهد أناسًا يذبحون عند الأضرحة، ويطوفون بها، ويتقربون إليها؟

فأجاب -رحمه الله تعالى-: سؤال الأخ عن التوحيد وأقسامه سؤال مهم، لأن التوحيد هو الذي بُعِثَتْ به الرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وحكى الله عن الرسل على وجه التفصيل أنهم كانوا يقولون لأقوامهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، والنبي -عليه الصلاة والسلام- جاء بتحقيق هذا التوحيد تحقيقًا تامًا يمنع العبد من الإشراك بالله الشرك الصغير والكبير.

وقد ذكر أهل العلم -رحمهم الله- أن أقسام التوحيد ثلاثة، وذلك بالتبعية والاستقراء:

أولها: توحيد الربوبية.

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد، رقم (٦٨٧٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله، رقم (٩٦).

والثاني: توحيد الألوهية.

والثالث: توحيد الأسماء والصفات.

وقد اجتمعت الثلاثة في آية واحدة من كتاب الله في قوله -تعالى-: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مریم: ٦٥] فقوله -تعالى-: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ هذا توحيد الربوبية، وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ هذا توحيد الألوهية، وقوله -تعالى-: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ هذا توحيد الأسماء والصفات، أي لا تعلم له سميًّا أي: مساميًّا يضاهيه ويمثله -عز وجل-.

فأقسام التوحيد ثلاثة:

القسم الأول: توحيد الربوبية، وهو: إفراد الله -عز وجل- في الخلق والملك والتدبير، فلا خالق إلا الله، ولا مالك إلا الله، ولا مُدَبِّر إلا الله، لا أحد يقوم بهذا على وجه الإطلاق والعموم والشمول إلا الله رب العالمين، فهو المتفرد بالخلق، الملك، التدبير، قال الله -عز وجل-: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] فهذه الآية فيها حصر الخلق والأمر في الله وحده، وذلك بتقديم الخبر ﴿لَهُ﴾ على المبتدأ ﴿الْخَلْقُ﴾، وتقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، كما قرر ذلك علماء البلاغة، فالخلق كله له، والأمر كله له -عز وجل-، لا يشركه أحد، قال الله -تعالى-: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [١٣] ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣-١٤]، وقال -تعالى-: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبا: ٢٢-٢٣]، فبين الله -عز وجل- أن هؤلاء السفهاء الذين اتخذوا عباده شركاء مع الله، لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض على وجه الاستقلال بها دون الله، ما لهم فيها من شرك، أي: لا

يملكون شِرْكَةً مع الله -عز وجل-، فليسوا مستقلين في شيء، وليسوا شركاء مع الله في شيء، ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢]، يعني: ما الله أحد من هؤلاء يساعده ويعينه -عز وجل-، بل هو مستغن عن جميع خلقه ﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣]، وذلك لكمال سلطانه وعظيم ملكه -عز وجل-، لا أحد يشفع عنده يتوسط بشيء لأحد من خير أو دفع ضرر إلا بإذنه -عز وجل-، وفي هذا قطع لجميع ما يتعلق به المشركون الذين يدعون أنهم يعبدون هذه الأصنام، يتخذونها شفعاء عند الله، قال: ﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾، ومن المعلوم أن الله لن يأذن لهذه الأصنام أن تشفع، ولا يأذن لأحد أن يشفع لعابد هذه الأصنام، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذِنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦] وقال -تعالى-: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وحيث تنقطع كل الآمال التي يتعلق بها هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله غيره، يرجونه نفعاً أو دفع ضرر، فإن ذلك لا ينفعه، قال الله -تعالى-: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥-٦].

إذا توحيد الربوبية إفراد الله -عز وجل- بأمور ثلاثة: بالخلق والملك والتدبير، فلا خالق إلا الله، ولا مالك إلا الله، ولا مدبر إلا الله، وما يوجد من المخلوق من صنع الأشياء، وما يوجد من المخلوق من الملك، وما يوجد للمخلوق من التدبير، فكله تدبير ناقص، وهم أيضاً غير مستقلين به، بل ذلك من خلق الله -عز وجل-، أما المنفرد بذلك على وجه الاستقلال فهو الله -سبحانه وتعالى-، فللمخلوق خلق وإيجاد، لكنه ليس كخلق الله، فالله -تعالى- مُوجِدُ الأشياء من العدم، والمخلوق لا يستطيع أن يوجد الشيء من العدم، وإنما يستطيع أن يُرَكَّبَ شيئاً مع شيء، أو يُعَيَّرَ صورة شيء إلى شيء، كما

لو غيّر النجار الخشبة إلى باب، والحداد الصفائح الحديد إلى أبواب وما أشبه ذلك، لكنه لن يخلق هذه المادة، قال الله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْنَاهُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ۗ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣-٧٤].

كذلك الإنسان له مُلك، قال الله - تعالى -: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦]، وقال الله - تعالى -: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْكُمْ مَفَاحِشُهُ﴾ [النور: ٦١]، ولكن هذا المُلْك مُلكٌ مقيد محدود ليس بشامل، وليس للإنسان فيه مطلق التصرف، بل هو محدود، فما بيدي من الملك ليس لك، وما بيدك من الملك ليس لي، ثم إنه ملك محدود لا تستطيع أن تتصرف فيه إلا على وفق ما جاءت به الشريعة.

وكذلك للإنسان تدبير: يُدبّر مملوكه، ويُدبّر زوجته، يُدبّر أهله، لكنه تدبير ناقص ليس بشامل، ولا للإنسان فيه مطلق الحرية، وبهذا عرفنا أن المنفرد بالخلق والمنفرد بالملك والمنفرد بالتدبير هو الله - عز وجل - وحده.

هذا قسم من أقسام التوحيد، وهذا التوحيد لم ينكره المشركون الذين بعث فيهم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -، بل كانوا يُقرّون به غاية الإقرار، قال - تعالى -: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، وهكذا الآيات الكثيرة كلها تدل على أن المشركين الذين قاتلهم النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - واستباح دماءهم وأموالهم ونساءهم وذريتهم كانوا يقرون بهذا التوحيد، لكن ذلك لم ينفعهم، لأنهم مشركون في توحيد الألوهية، توحيد العبادة الذي هو حق الله الخاص له، وهو:

القسم الثاني: توحيد الألوهية: المستفاد من قوله - تعالى -: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]،

والألوهية مبنية على شيئين، بل العبادة مبنية على شيئين: المحبة والتعظيم، فبالمحبة يكون الرجاء وفعل الأوامر، طلباً للوصول إلى محبة الله - عز وجل - وثوابه، والتعظيم - وهو الأساس الثاني للعبادة - به يترك الإنسان المَنَاهِي التي نهى الله عنها، لأنه بتعظيمه لله يترك مناهيه ويخاف من عقابه.

ثم إن العبادة لها شرطان: الأول: الإخلاص لله. والثاني: المتابعة لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -.

فللعبادة إذاً ركنان ولها شرطان، أما ركنها: فالمحبة، والتعظيم وهما الأساس، وأما شرطاهما فهما: الإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -، ودليل ذلك قوله - تعالى -: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ [البينة: ٥]، وقوله - تعالى - في الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»^(١)، ودليل المتابعة قوله - تبارك وتعالى -: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ»^(٢). أي: مردود على صاحبه، لأنه لم يتحقق فيه المتابعة.

وإذا نظرنا إلى حال كثير من المسلمين اليوم وجدنا أنهم ليسوا على توحيد خالص في باب الألوهية والعبودية فمنهم من يعبد القبور، ومنهم من يعبد الأولياء، ومنهم من يطوف بالقبور رجاء لنفعها ودفعها للضرر، ومنهم من يؤله الحكام ويجعلهم في منزلة الألوهية، يطيعهم فيما حرم الله فيستحله وفيما أحل الله فيحرمه، وهذا هو اتخاذهم أرباباً، قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا إِلَّا إِلَهُهُ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١].

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب إذا اصطلحوا على صلح جور، رقم (٢٦٩٧)، مسلم: كتاب

الأفضية، باب نقض الأحكام الباطلة، رقم (١٧١٨).

فَعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ لِلنَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ-: «أَمَّا إِيَّاهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ» ^(١).

وهذا القسم من التوحيد هو الذي خالف فيه المشركون رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- وأنكروا عليه، وقالوا فيه: ﴿أَجْعَلِ لِلْأَلِهَةِ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] وسبحان الله أن يكون التوحيد عجابًا، وأن يكون شركه صوابًا، فالعجب العجيب الذي لا ينقضي هو أن يشرك هؤلاء بالله ما لا ينفعهم ولا يضرهم ولا يستجيب لهم إلى يوم القيامة، وقد استباح النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- دماء هؤلاء المشركين، ونساءهم، وذرياتهم، وأموالهم، وقتلهم على ذلك أشد المقاتلة، حتى يعبدوا الله -عز وجل- أو يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون.

أما القسم الثالث: فهو توحيد الأسماء والصفات، وهو أفراد الله -عز وجل- بأسمائه وصفاته، وذلك بإثبات ما أثبتته الله لنفسه، ونفى ما نفى الله عن نفسه، والسكوت عما سكت الله عنه ورسوله، إثباتًا بلا تمثيل، ونفيًا بلا تعطيل، وهذا هو الذي انقسمت فيه الأمة الإسلامية إلى أقسام متعددة، فمنهم السلف، وهم فقط أهل السُنَّة والجماعة الذين أثبتوا لله ما أثبتته الله لنفسه من الأسماء والصفات في كتابه أو على لسان رسوله -صلى الله عليه وآله وسلم-، إثباتًا بلا تمثيل، ونفوا ما نفى الله عن نفسه نفيًا بلا تعطيل، وسكتوا عما سكت الله عنه ورسوله، فمن ذلك أنهم أثبتوا لله كل ما وصف به نفسه، كل صفة أثبتها لنفسه من الحياة، والعلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والإرادة، والكلام، والعزة، والحكمة، والرحمة، والعجب، والضحك، وأثبتوا لله الوجه

(١) أخرجه الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة التوبة، رقم (٣٠٩٥).

واليدنين والعينين، وأثبتوا لله القدم والساق، وكذلك كل ما وصف الله به نفسه أثبتوه لله - عز وجل - لكن بلا تمثيل، يثبتون هذا ويقولون: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فيقولون: لله يد ولكن ليستا كأيدينا، لله وجه لكن ليس كوجوهنا، عينان لكن ليست كأعيننا، وهكذا بقية الصفات. ويقولون أيضًا: إن الله استوى على العرش، علا عليه علوًا يليق بجلاله - عز وجل -، لكن ليس كاستوائنا نحن على السرير أو على الدابة أو على الفلك، لا، لأن الله - تعالى - يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، هذا هو مذهب السلف: إثبات ما أثبتته الله لنفسه من الأسماء والصفات، ونفى ما نفى الله عن نفسه من الأسماء والصفات، والسكوت عما سكت عنه.

بعد ذلك تنازع الناس تنازعًا طويلًا عريضًا لا ينبنى على أصل، لا من المعقول ولا من المنقول، فأثبت قوم الأسماء، وأثبتوا من الصفات صفات قليلة، ليس على الوجه الذي يثبت عليه أهل السنة والجماعة، بل يخالفونه في كيفية هذا الإثبات.

وأثبت قوم الأسماء، ونفوا الصفات كلها، إلا الحياة والعلم والقدرة. ونفى قوم الأسماء والصفات، ونفى قوم الإثبات والنفي، واضطربوا في ذلك اضطرابًا كثيرًا. لكن من هؤلاء من تصل بدعته إلى حد الكفر المخرج من الملة، ومنهم من دون ذلك، ولكن الحق فيما ذهب إليه السلف، وهم أهل السنة والجماعة وهو: إثبات كل صفة أثبتها الله لنفسه بدون تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل، ونفى كل صفة نفاها الله عن نفسه، والسكوت عما سكت الله عنه، وهذه الطريقة السليمة الثابتة سمعًا وعقلًا وفطرة.

وللناس في هذا كتب ورسائل معلومة، ومن أحسن ما رأيته تقريبًا لهذا الأصل العظيم ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله، وكتبه تلميذه ابن القيم رحمته الله، فإنهما كتبا في هذا الباب كتابات عظيمة مفيدة، ما رأيت أحدًا كتب مثل

كتابتها، وغالب من يكتب في هذا الباب تجدهم يُقلِّد بعضهم بعضاً، ولهم مقلدون لا يخرجون عن كلامهم ولو تبين الحق، والحقيقة أن الواجب على المرء أن يتبع ما دل عليه كتاب الله وسُنَّةُ رسوله -صلى الله عليه وآله سلم-، وأنه ليس بمعذور إذا خالف ذلك من أجل قول فلان وفلان، قد يخطئ فلان وفلان من المتبوعين خطأ يعذر فيه، لكن التابع الذي تبين له الحق لا يعذر في اتباعه للمخطئين.

وإنني من هذا المنبر -منبر نور على الدرب في إذاعة المملكة العربية السعودية- أدعو جميع إخواني الذين درسوا في هذا العلم -علم التوحيد، وعلم العقائد- إلى تقوى الله -عز وجل-، وأن يسلكوا ما سلكه النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وأصحابه من الخلفاء الراشدين وغيرهم في هذا الباب العظيم الخطير، لأن هذا الباب مبناه على الخبر المحض، ليس للعقول فيه مجال إلا على سبيل الإجمال، فإن العقول تهتدي إجمالاً إلى أن الله موصوف بصفات الكمال، منزّه عن كل نقص وعيب، ولكن لا تدرك هذا على وجه التفصيل، وإنما يؤخذ ذلك من الكتاب والسُنَّة، وإذا كان هذا هو الواقع، وأن ما يتعلق بصفات الله وأسمائه خبر محض، فإنه يجب علينا أن لا نحيد عمّا جاء به الكتاب والسُنَّة قيد أنملة، ولا سُمْكَ شعرة، بل يجب علينا قبول ما جاء به الكتاب والسُنَّة من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكيف ولا تمثيل.

ولقد رأينا أن الذين يَحِيدُونَ عن هذه السبيل، ويتخبطون خبط عشواء في بعض أسماء الله وصفاته يَضِلُّون كثيراً، ويؤدي بهم الحال إلى الشرك وإلى الحيرة، كما نقل ذلك عن كثير من زعمائهم، حتى إن الفخر الرازي وهو من رؤسائهم قال فيما نقل عنه، إما منشداً وإما ناظماً^(١):

نهاية إقدام العقول عِقالٌ وأكثر سعي العالمين ضلالٌ
وأرواحنا في وحشةٍ من جُسومنا وغايةً دنيانا أذىً ووبالٌ

(١) الأبيات قالها أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي، وانظر طبقات الشافعية للسبكي (٩٦/٨)، وعيون الأنباء (٢/٢٨).

ولم نستفيد من بحثنا طولَ عمرنا سوى أن جمعنا فيه: قِيلَ وَقَالُوا
 وقال: «لقد تأملتُ الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تروي
 غليلاً ولا تشفي عليلاً، وجدت أقرب الطرق طريقة القرآن أقرأ في الإثبات:
 ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر:
 ١٠] وأقرأ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ
 بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]. ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي». ويقول الآخر^(١):

لقد طفت في تلك المعاهد كلها وسيرتُ طرفي بين تلك المعالم
 فلم أرَ إلا واضعاً كفَّ حائرٍ على ذقنه، أو قارعاً سنَّ نادمٍ
 وهذا يدل على أن هؤلاء المتكلمين الذين ذهبوا يَحْكُمُونَ على الله
 -تعالى- بعقولهم فيما يصفونه به كانوا في حيرة شديدة، وأن من بلغ منهم
 الغاية في علم الكلام رجع إلى الحق، وهو ما كان عليه سلف هذه الأمة من
 إثبات ما أثبتته الله لنفسه، أو أثبتته له رسوله -صلى الله عليه وآله وسلم-،
 ونفي ما نفى الله عنه، أو ما نفاه عنه رسوله -صلى الله عليه وآله وسلم-،
 والسكوت عن ما لم يرد به إثبات ولا نفي، وهذا هو الأدب مع الله ورسوله،
 فعلينا جميعاً أن نتوب إلى الله -عز وجل-، وأن نرجع إلى منهج سلفنا الصالح
 في هذا الباب العظيم الخطير.

ونسأل الله لنا، ولإخواننا السلامة والتوفيق لمنهج السلف الصالح، وأن
 يتوفانا على ما يحبه ويرضاه، إنه جواد كريم.

(٤) يقول السائل: هل الإيمان هو التوحيد؟

فأجاب -رحمه الله تعالى-: الإيمان والتوحيد شيئان متغايران ومتفقان،

(١) الأبيات للشهرستاني، قالها في نهاية الإقدام (ص ٣).

فالتوحيد هو إفراد الله - عز وجل - بما يستحقه ويختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، ولهذا قال العلماء - رحمهم الله -: إن التوحيد ينقسم إلى ثلاثة أقسام: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

إن هذه الأقسام جاءت في قوله - تعالى -: ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٦٥] فقوله: ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ يعني توحيد الربوبية، وقوله: ﴿ فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ﴾ يعني توحيد الألوهية، وقوله: ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ يعني توحيد الأسماء والصفات.

وهذا التقسيم للإيمان في الواقع، لأن الإيمان بالله - عز وجل - يتضمن الإيمان بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وعلى هذا فالمُوحِدُ لله مؤمن به، والمؤمن بالله موحد له، لكن قد يحصل خلل في التوحيد، أو في الإيمان فينقصان، ولهذا كان القول الراجح أن الإيمان يزيد وينقص، يزيد وينقص في حقيقته، وفي آثاره ومقتضياته، فالإنسان يجد من قلبه أحياناً طمأنينة بالغة، كأنها يشاهد الغائب الذي كان يؤمن به، وأحياناً يحصل له شيء من قلة هذا اليقين الكامل، وإذا شئت أن تعرف أن اليقين يتفاوت فاقراً قول الله - تعالى - عن إبراهيم خليله - عليه الصلاة والسلام -: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُنْجِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة: ٢٦٠] كما أنه أيضاً يزيد بآثاره ومقتضياته، فإن الإنسان كلما ازداد عملاً صالحاً ازداد إيمانه، حتى يكون من المؤمنين الخُلَصِّ.

(٥) يقول السائل: كيف يحقق المسلم التوحيد؟

فأجاب - رحمه الله تعالى -: يُحَقِّقُ التوحيد بإخلاص شهادة أن لا إله إلا الله، أي: لا معبود حق إلا الله - عز وجل -، فكل ما عبد من دون الله فهو

باطل، قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ ﴾ [لقمان: ٣٠]، ويحقق التوحيد - وهو توحيد الاتباع - بالتزام سنة النبي ﷺ، فلا يجيد عنها يمينًا ولا شمالًا، وألا يتقدمها إقبالًا، ولا يتأخر عنها إدبارًا.

(٦) يقول السائل: كيف يحقق المسلم التوحيد؟

فأجاب - رحمه الله تعالى -: يحقق التوحيد بالإخلاص لله - عز وجل -، وأن تكون عبادته لله تعالى وحده لا يُرأى فيها ولا يُجَـابى فيها، وإنما يعبد الله مخلصًا له الدين، هذا بالنسبة للعبادة.

كذلك أيضًا بالنسبة للربوبية: لا يعتمد إلا على الله، ولا يستعين إلا بالله، قال النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - لابن عمه وهو عبد الله بن عباس رضي الله عنه: «يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده مُجَاهَك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك»^(١)، وعليه أن يسأل الله دائمًا الثبات على الحق وعلى التوحيد، فإن كثيرًا من الناس وإن كان معه أصل التوحيد لكن تكون عنده أشياء منقصة لإيمانه، وأضرب لك مثلًا شائعًا عند الناس يتهاونون به وهو: الاعتماد على الأسباب، فإن من المعلوم أن الله - سبحانه وتعالى - قَدَّرَ للأشياء أسبابًا، فالمرض قدر الله للشفاء منه أسبابًا، والجهل قدر الله - تعالى - للتخلص منه أسبابًا، الأولاد قدر الله لهم أسبابًا، وهلم جرا، فبعض الناس يعتمد على السبب، فتجده إذا مرض يتعلق قلبه تعلقًا كُليًّا بالمستشفى وأطبائه، ويذهب وكأن الشفاء بأيديهم، وينسى أن الله - سبحانه وتعالى - جعل هؤلاء أسبابًا قد تنفع وقد لا تنفع، فإن نفعت

(١) أخرجه أحمد (٢٩٣/١)، الترمذي: كتاب صفة القيامة، باب، رقم (٢٥١٦).

فبفضل الله وتقديره، وإن لم تنفع فيعدل الله وتقديره، فلا يجوز أن ينسى الإنسان المتسبب ويتذكر السبب، نعم نحن لا ننكر أن السبب له تأثير في المسبب، لكن هذا التأثير إنما كان بإذن الله -عز وجل-، كما قال الله -تبارك وتعالى- في السحرة: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [البقرة: ١٠٢] قال: ﴿وَمَا هُمْ بِضَاكِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

فالمهم أن تحقيق التوحيد هو تعلق القلب بالله -تبارك وتعالى- خوفاً وطمعاً، وتخصيص العبادة له وحده.

